



الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على نبينا محمد، وعلى اله وصحبه وكل من اهتدى بهديه واتبع سنته إلى يوم الدين، أما بعد:

قال من ابتلينا به في بلاد الشام: ما يحدث في البلاد العربية لا يمكن أن ينتقل إلى سوريا لأن حالنا تختلف عن أحوالهم، فنحن والشعب يد واحدة نقف بوجه المخططات الصهيونية، ولا نقبل أن يفرض علينا الأميركيان وصايتهم، وعندما سئل عن الإصلاح قال: بدأنا بالإصلاح الاقتصادي، أما السياسي فيحتاج إلى التدرج في تطبيقه. وقد اعتاد على ترديد مثل هذه الأقوال التي ليس لها أدنى مصداقية، فالشعب السوري كما يرى لا يفهم في السياسة، ويريد أن يعلمه وعلمه وأشار إلى حاجته إلى عقد آخر.

وقال أبناء جيلي: حقاً إن سوريا تختلف عن أي بلد عربي آخر، فالبلد تحكمه طائفة معينة منذ ثمان وأربعين عاماً، وقد تربى جيل كامل على الذل والقهر والاستعباد، وصار المواطن حتى لو كان في سفر متحفظاً في كل كلمة يقولها إذا كانت تمس النظام من قريب أو بعيد. وأضافوا:

إن عدد رجال الأمن يبلغ بضع مئات - حسب بعض التقديرات - ولهم فروع ومكاتب في كل قرية ولو كانت صغيرة ونائية، أما أحياء المدن فلهم في كل حي أكثر من فرع، وهذه ظاهرة لم يعرفها بلدنا من قبل.. ويمسك بتلابيب هذه الأجهزة كما يمسك بتلابيب الجيش أبناء هذه الطائفة الحاكمة، ويمارسون أبشع أنواع الظلم والاستبداد، ويتحدون مشاعر الناس في حرمتهم وكرامتهم ويبتزون أموالهم بطرق دنيئة.. فكيف سيحدث التغيير في مثل هذه الأجواء الخانقة التي يحاسب فيها الإنسان حتى لو لم يتكلم؟.

وقال الشباب ممن هم دون سن الثلاثين:

أيها الآباء والأجداد إننا نعتز بما تعلمناه منكم، ونحترم خبرتكم وفضلكم، ولكن عصرنا مختلف عن عصركم، ونحن نعرف كيف نستخدم الآلات والوسائل الحديثة، وأنتم لا تعرفون، وقد تعلمنا منكم بأن لكل زمان دولة ورجال، فدعونا نطرق أبواب تجربة جديدة مع حاجتنا إلى دعائكم لنا بالتوفيق والنجاح.

كانت الأجواء متواترة منذ الثورة التونسية وزادت توبراً بعد التجربة المصرية، فأجهزة الأمن مستنيرة ومنتشرة في كل مكان

تسترق السمع، وتراقب الناس وتكمم الأفواه.. وكانت أتساءل: هؤلاء الشباب الذين يبيتون أمراً ما، هل يعيدون تجارب جيلنا، أم سيصنعون حدثاً جديداً يختلف في شكله ومضمونه عن كل التجارب والمحاولات السابقة؟!.

والذي أدهشني أن الذي أشعل نيران هذه الثورة أطفال من درعا حاضرة حوران عندما كتبوا على الجدران الشعب يريد إسقاط النظام، فاعتقلتهم المخابرات، ونقلتهم إلى وكر من أوكرارها في دمشق، وهب المتظاهرون في ذرعاً يهتفون: "من حوران هلت البشائر"، واستخدم النظام البطش الذي لا يعرف سلاحاً غيره، وقتل من قتل ممن نحتسبهم شهداء في سبيل الله ولا نذكر على الله أحداً.. وخشيته أن تنفرد قوات الأمن بهذه المدينة، وتعزلها عن بقية مدن وقرى حوران، ثم عن المحافظات السورية كلها، ثم تفعل بها ما فعلته بمدينة حماة عام 1982، غير أن الوضع كله قد اختلف: لقد هبت عشائر حوران بشبها وشبابها، ويممت نحو درعاً سيراً على الأقدام رغم الحصار المفروض عليها، ودخلها كثير منهم من طرق جانبية ليلبوا نداء إخوانهم: "الفزعة.. الفزعة يا حوران" .. ثم امتدت الثورة لتشمل: طفس، وداعل، والحراك، والشيخ مسكن، ونوى، والصمنين، وجاسم، والحارة، وإنخل، وكل قرية من قرى حوران، وإن لم تذكرها وسائل الإعلام..

وسقط شهداء هنا وهناك برصاص العصابة الحاكمة التي لم ترق إلى مستوى الدولة رغم مرور ثمان وأربعين عاماً على استلامها دفة الحكم، ولا أدرى كيف ستensi هذه العشائر شهداءها الذين غطوا أرض حوران، وهل تفهم هذه العصابة معنى النداء الذي كان يردد الجم眾 الهادر: **يحرم علينا لبسات العصائب.. لن ما خذينا لعيال حوران بالثار.**

والذي كان يخشاه النظام وقع، فالمظاهرات امتدت إلى كل من: دمشق، ودوما، والتل، والمعظمية، وحمص، وبانياس، واللاذقية، وحماة، ودير الزور، ومناطق أخرى.. وسالت الدماء، وأخذ النظام يتربّع، ويتناقض فيما يُصدر من تصريحات تقرأها وتعلق عليها عجوز متوتة، وما كان يزعمه من ورث الحكم وهو ليس أهلاً له بأن الإصلاحات تحتاج إلى زمن، والشعب لا يدرى مدة هذا الزمن، وهل تبدأ فعلاً؟ تبدأ وأخذ يعلن وبطريقة غامضة عن إلغاء قانون الطوارئ، وعن إصدار تشريعات تسمح بتعدد الأحزاب وغير ذلك مثل إطلاق سراح الأطفال المعتقلين، وبعض النساء والرجال.

و قبل الاسترسال في الحديث عن تقويمي لبداية تجربة هؤلاء الشباب، أستسمح القراء عذرًا في وقفة قصيرة أسجل فيها أحاسيس ومشاعر من فرض عليه هذا النظام الغاشم غرابة مضى عليها ست وأربعون عاماً:

1- هذا المسجد الذي يتحدث اليوم العالم عنه عبر وسائل إعلامه هو مسجدي الذي كنت أصلـي فيه الجمعة، وأستمع لخطب دروس شيخنا الأول عبد العزيز أباـزيد - رحـمه الله -، وما زلت أذكر بعض ما قالـه في مناسبات لم يكن فيها هذا الوحش المفترس الذي أسمـوه قانون الطوارئ.. كان طول العهد أنسـانيـ أن اسمـه "المسجد العـمرـي"ـ، وقيلـ لي مازـالـ كما عـهـدـتهـ،ـ لم يتـغـيرـ فيـهـ شيءـ والعـهـدةـ علىـ الرـاوـيـ.

2- وهذه المظاهرة المباركة التي دخلـتـ التـارـيخـ منـ أوـسـعـ أـبـواـيهـ،ـ ذـكـرـتـنيـ بـمـظـاهـرـاتـ كـثـيرـةـ شـارـكـتـ فـيـهاـ وـأـنـاـ طـالـبـ فيـ مـتوـسـطـةـ درـعاـ (لمـ تـكـنـ المـرـحـلـةـ الثـانـوـيـةـ قـدـ تـأـسـسـتـ)،ـ وـكـانـ أـشـهـرـهـ مـظـاهـرـاتـ 1954ـ مـ الـتـيـ اـنـتـهـتـ بـسـقـوـطـ الـحـاـكـمـ الـعـسـكـرـيـ أـدـيـبـ الشـيشـكـيـ.ـ فـيـ هـذـهـ مـظـاهـرـةـ قـتـلـ طـالـبـ مـنـ عـائـلـةـ عـزـيـزةـ،ـ وـنـسـيـتـ إـنـ كـانـ قـدـ قـتـلـ غـيرـهـ،ـ وـاعـتـقـلـتـ الشـرـطـةـ الـعـسـكـرـيـةـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ مـخـابـرـاتـ عـدـدـاـ قـلـيلـاـ مـنـ كـبـارـ الـطـلـبـةـ،ـ نـامـواـ يـوـمـيـنـ فـيـ السـجـنـ،ـ وـحـلـقـ السـجـانـوـنـ شـعـرـ رـؤـوسـهـمـ،ـ ثـمـ عـادـواـ أـبـطـالـاـ،ـ وـكـنـاـ نـماـزـ بـعـضـ الـطـلـبـةـ،ـ فـنـقـولـ لـهـمـ:ـ أـنـتـمـ تـعـلـقـتـ بـسـيـارـةـ الشـرـطـةـ لـيـعـتـقـلـوـكـمـ،ـ وـلـتـعـودـواـ أـبـطـالـاـ،ـ وـلـكـنـهـ فـوـتـواـ عـلـيـكـمـ الـفـرـصـةـ الـتـيـ كـنـتـ تـسـعـونـ إـلـيـهـاـ...ـ غـادـرـ أـدـيـبـ الشـيشـكـيـ سـوـرـيـةـ،ـ وـرـفـضـ إـرـاقـ دـمـاءـ أـبـنـاءـ الـوـطـنـ،ـ فـشـتـانـ شـتـانـ بـيـنـ ذـاكـ الـحـاـكـمـ الـعـسـكـرـيـ،ـ وـهـذـاـ النـظـامـ الـعـسـكـرـيـ الـبـاطـنـيـ.

3- هل يدرـيـ هـؤـلـاءـ الشـابـاـنـ كـسـرـوـ حـاجـزـ الـخـوفـ،ـ وـفـجـرـوـ ثـورـةـ سـلـمـيـةـ،ـ وـاستـقـبـلـوـ رـصـاصـ الغـدرـ وـالـخـيـانـةـ بـصـدـورـ عـارـيـةـ،ـ وـشـجـاعـةـ نـادـرـةـ..ـ نـعـمـ هـلـ يـدـرـونـ أـنـ أـجـادـهـمـ الـأـقـرـبـيـنـ هـمـ الـذـيـنـ كـسـرـوـ حـاجـزـ الـخـوفـ مـنـ فـرـنـسـاـ الـعـظـمـيـ،ـ (ـوـلـيـسـ مـنـ هـذـاـ الصـعـلـوكـ وـأـخـيـهـ الـأـحـمـقـ)ـ فـيـ عـامـ 1920ـ يـوـمـ دـخـلـ غـورـوـ دـمـشـقـ فـيـ زـهـوـ وـخـيـلـاءـ،ـ وـكـانـ أـوـلـ عـهـدـهـ بـهـاـ زـيـارـةـ قـبـرـ الـبـطـلـ.

صلاح الدين الأيوبى، وقال يخاطب القبر: "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، وفي رواية تاريخية أخرى: قال: "نحن أحفاد غود فرای فأین أحفادك يا صلاح الدين"!.

سمعت سوريه كلها هذا التحدي من علچ صليبي متجر، ووقفت مذعورة مقهورة، وما عساها تفعل بعد هزيمة جيشها ومتطوعيها في معركة ميسلون؟!.

أما أجدادكم أيها الشباب من (آل الحلقي، والجباوي، والحريري، والزعبي، والحسيني، والمسالمة، والأبازيد، والجوابرة، والخليلي، والمقداد والرفاعي، والمصري).. وجميع العشائر الأخرى دون أي استثناء فقد اجتمعوا في حاضرتهم الباسلة درعا، وطلبو من ملك سوريا الذي خلعته فرنسا، قيادة ثورتهم، لكن فيصل بن الحسين أبي وممضى في قطاره المتوجه إلى حيفا، فقد أجدادكم أيها الشباب البواسل ثورتهم وحدهم ودون مساعدة أحد ممن يجاورونهم، وكانت أرض معركتهم تمتد من شمال الصنمين وحتى درعاً جنوباً، ومن بحيرة طبريا غرباً حتى بادية الشام الجنوبية شرقاً. واستخدم الفرنسيون جميع أنواع الأسلحة الحديثة في تلك الأيام، وهدمت طائراتهم بعض بيوت شيخ العشائر، وكان من المواجهات الكثيرة بين الحرارنة والفرنسيين القطار الذي كان يقل كبار أعضاء الحكومة المتعاونة مع فرنسا، فانقضوا عليه، وقتلوا أكثر ركابه من الفرنسيين والسوريين العمالء، وقد حمد وعقله القطار بعد الاستيلاء عليه من محطة "خربة غزال" إلى درعا بصعوبة بالغة.

فحمد وعقلة الذي يتندر البعض بذكر اسميهما بطلان من أبطال الجهاد، ومفخرة من مفاخر حوران.

أجدادكم - أيها الأبناء والأحفاد - هم الذين قاتلوا القوات الفرنسية في درعا في نهاية عام 1945 م بسلاح بدائي، وأرغموها على مغادرة المحافظة قبل أن تنسحب هذه من أية محافظة أخرى. قال لي من شهد هذه المعركة: كان البعض يهجم على القوات الفرنسية بالسلاح الأبيض أو ببنادق قديمة ذات طلقة واحدة ولسان حالهم يردد: {وعجلت إليك ربى لترضى}، مما أوقع الرعب في قلوب الفرنسيين رغم امتلاكهم الأسلحة المتطورة، وقتلهم عدداً كبيراً من المجاهدين. لقد غادرت بلدي عام 1965 م أي بعد عشرين عاماً من هذه المعركة الفاصلة، وبعض نوافذ البنك الوحيد في درعا التي اخترقتها رصاص هذه المعركة باقية على حالها.

يا شباب حوران: لقد جئت على ذكر بطولة أجدادكم الأقربين لسبعين:

- الأول: لم يذكر التاريخ المقرر، ومذكرات السياسيين السوريين عن هذه البطولات والتضحيات التي لم تنقطع طوال عهد الاستعمار الفرنسي أكثر من سطرين أو ثلاثة، وهذا ظلم يجب أن يستدركه أهل الأقلام منكم.

- الثاني: لأنكم بأنكم خير خلف لخير سلف، وأطالب هؤلاء الحكماء أن يقرؤوا التاريخ جيداً ليعلموا من هو الخائن الذي وضع نفسه في خدمة كل مستعمر؛ سواءً كان هذا المستعمر: صليبياً أو فرنسياً أو يهودياً، ومن هو المجاهد الذي لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً.

أبنائي وأحفادي: في حديث قادم سأذكر باعتزاز الدروس التي تعلمتها منكم، والله ولي التوفيق.

المصادر: